وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووضحت قواعد التصور الإيمانى ، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة عقيدته . والآية فى ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان ، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو ، وما دام هو الحىّ القيوم على أمر السماء والأرض ، وكل شىء بيده ، وهو العلىّ العظيم ، فكل هذه مبررات لأن نؤمن به سبحانه وتعالى ، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المعتقدات ، وتكون هى الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذى كان أمر الألوهية المطلقة واضحاً وبيّناً فيه .

ولذلك، فمن الطبيعى ألا يقهر الحق أحداً على الإيمان به إكراهاً ، لأن الذى يقهر أحداً على عقيدة ما ، هو أول مَنْ يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحد . ونحن فى حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادىء الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم . وكل من أصحاب هذه المبادىء الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادىء الباطلة .

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادىء الباطلة معتقداً أن مبدأه سليم لقال : أطرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهم الخيار ؛ لأنه فى هذه الحالة سيكون واثقاً من مبدئه . أما الذى يقهر الناس إكراهاً بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما ، فهو أول مَنْ يشك فى هذا المبدأ ، وهو أول مَنْ يعتقد أنه مبدأ باطل . مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان، فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه .

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا نحن العباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه : « لا إكراه فى الدين » . والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيراً فى أن يفعله . أى لا يرى الشخص المكرَه فيه خيراً حتى يفعله .

ولكن هناك أشياء قد نفعلها مع من حولنا لصالحهم ، كأن نرغم الأبناء على المذاكرة ، وهذا أمر لصالح الأبناء ، وكأن نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء . ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً ، إنما هى أمور نقوم بها لصالح من حولنا ؛ لأن أحداً لا يسره أن يظل مريضاً .

إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق العقل السليم . ولذلك يقول الحق سبحانه : « لا إكراه فى الدين » . ومعنى هذه الآية أن الله لم يُكره خلقه ـ وهو خالقهم ـ على دين ، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار ، كما قهر السموات والأرض والحيوان والنبات والجماد ، ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره . فيقول سبحانه :

﴿ لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

لكن الحق يريد أن يعلم من يأتيه محباً مختاراً وليس مقهوراً ، أن المجىء قهراً يثبت له القدرة ، ولا يثبت له المحبوبية ، لكن من يذهب له طواعية وهو قادر ألا يذهب فهذا دليل على الحب ، فيقول تعالى : « لا إكراه فى الدين » أى أنا لم أضع مبدأ الإكراه ، وأنا لو شئت لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . فهل الرسل الذين أرسلهم سبحانه يتطوعون بإكراه الناس ؟ . لا ، إنّ الرسول جاء لينقل عن الله لا لُيكره الناس ، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين ، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل ، ولذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله ؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين ، إذن فالمبلغ عنه لا يُكره خلقه على التدين ، إلا أن هنا لبسًا . فهناك فرق بين القهر على الدين ، والقهر على مطلوب الدين ، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف .

تقول لمسلم : لماذا لا تصلي ؟ يقول لك : « لا إكراه في الدين » ، ويدعي أنه مثقف ، ويأتيك بهذه الآية ليلجمك بها ، فتقول له : لا . « لا إكراه في الدين » عقيدة وإيماناً ، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلماً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام نطلب منك أن تؤديه ، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن حين التزمت بالإيمان ، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان ، وإلا حُسب تصرفك أنه من تصرفات الإسلام ، فإذا كنت تشرب خمراً فإنك حر ؛ لأنك كافر مثلا ، لكن أتؤمن ثم تشرب خمراً !؟ لا . أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله ، وعليك العقاب .

ولأنك مادمت قد علمت كعاقل رشيد مطلوبَ الإسلام ، فعليك أن تنفذ مطلوب الإسلام ، ولذلك لم يكلف الله الإنسان قبل أن ينضج عقله بالبلوغ ؛ حتى لا يقال: إنّ الله قد أخذ أحداً بالإيمان وألزمه به قبل أن يكتمل عقله . بل ترك التكليف حتى ينضج الإنسان ويكتمل ، حتى إذا دخل إلى دائرة التكليف عرف مطلوباته ، وهو حر أن يدخل إلى الإيمان أو لا يدخل ، لكن إن دخل سيُحاسب .

إذن فلا يقل أحد عندما يسمع حكماً من أحكام الدين : « لا إكراه في الدين » ؛ لأن هذه الآية نزلت بشأن العقيدة الأساسية ، فإن اتبعت هذه العقيدة صار لزاماً عليك أن توفي بمطلوباتها . وقد أراد خصوم الإسلام أن يصعدوا هذه العملية فقالوا كذباً وافتراء : إن الإسلام انتشر بحد السيف .

ونقول لهم : لقد شاء الله أن ينشأ الإسلام ضعيفاً ويُضطهد السابقون إليه بكل أنواع الاضطهاد ، ويُعذبون ، ويُخرجون من ديارهم ومن أموالهم ومن أهلهم ، ولا يستطيعون عمل شيء . إذن ففترة الضعف التي مرت بالإسلام أولا فترة مقصودة .

ونقول لهم أيضا : من الذى قهر وأجبر أول حامل للسيف أن يحمل السيف ؟! والمسلمون ضعاف ومغلوبون على أمرهم ، لا يقدرون على أن يحموا أنفسهم ، إنكم تقعون فى المتناقضات عندما تقولون : إن الإسلام نُشِرَ بالسيف . ويتحدثون عن الجزية رفضاً لها ، فنقول : وما هى الجزية التى يأخذها الإسلام من غير المسلمين كضريبة للدفاع عنهم ؟ لقد كان المسلمون يأخذون الجزية من البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى ، أى أن هناك أناسًا بقوا على دينهم . ومادام هناك أناس باقون على دينهم فهذا دليل على أن الإسلام لم يُكره أحداً .

وقول الله : « لا إكراه فى الدين » علته أن الرشد واضح والغىّ واضح ، ومادام الأمر واضحا فلا يأتى الإكراه . لأن الإكراه يأتى فى وقت اللبس ، وليس هناك لبس ، لذلك يقول الحق : « قد تبين الرشد من الغىّ » . ومادام الرشد بائنا من الغىّ فلا إكراه . لكن الله يعطيك الأدلة ، وأنت أيها الإنسان بعقلك يمكنك أن تختار ، كى تعرف أنك لو دخلت الدين لالتزمت ، وحوسبت على دخولك فى الدين ، فلا تدخل إلا وأنت مؤمن واثق بأن ذلك هو الحق ؛ لأنه سيترتب عليه أن تقبل أحكام الدين عليك .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » والرشد : هو طريق النجاة ، و« الغى » : هو طريق الهلاك . ويقول الحق إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى من آيات القرآن الكريم :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يعلمنا أن المتكبرين فى الأرض بغير حق لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات الله ودلائل قدرته ، وحتى إن رأوا السبيل الصحيح فلن يسيروا فيه ، وإن شاهدوا طريق الضلال سلكوا فيه لأنهم يكذبون بآيات الرحمن ويغفلون عنها .

والغى ـ أيضا ـ هو ضلال الطريق ، فعندما يسير إنسان فى الصحراء ويضل الطريق يقال عنه : « فلان قد غوى » أى فقد الاتجاه الصحيح فى السير ، وقد يتعرض لمخاطر جمة كلقاء الوحوش وغير ذلك . ويوضح لنا الحق طريق الرشد بمنطوق آخر فى قوله الحق :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الجن قد ظنوا كما ظن بعض من معشر الإنس أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت أو لن يرسل رسولاً من البشر لهداية الكون . وقد طلب الجن بلوغ السماء فوجدوها قد مُلئت حرساً من الملائكة وشُهباً محرقة . وإن الجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء وهل فى ذلك شرٌّ بالبشر أو أراد الله بهم خيراً وهدى . إذن فالرُّشْد ـ بضم الراء وتسكين الشين ـ ـ والرَّشَد بفتح الراء وفتح الشين ـ كلاهما يوضح الطريق الموصل للنجاة . ويقابل الرشد الغىّ .

ويتابع الحق : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » أولا : نلحظ أن الحق هنا قد قدم الكفران بالطاغوت ، ثم جاء بالإيمان بالله ؛ لأن الأمر يتطلب التخلية أولا والتحلية ثانيا ، لابد أن يتخلى الإنسان من الطاغوت ، فلا يدخل على أنه يؤمن بالله وفى قلبه الطاغوت ، فنحن قبل أن نكوى الثوب نغسله وننظفه ، التخلية قبل التحلية .

وما هو « الطاغوت » ؟ إنه من مادة « طغى » ، وكلمة « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . لم يقل : طاغ ، بل طاغوت ، مثل جبروت ، والطاغوت إما أن يُطلق على الشيطان،وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيكَفِّرون وينسبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم ، ويعطون أشياء بسلطة زمنية من عندهم ، ويُطلق أيضاً على السحرة والدجالين ، ويُطلق على كل من طغى وتجاوز الحد فى أى شىء ، فكلمة « طاغوت » مبالغة ، وقد تكون هذه المبالغة متعددة الألوان ، فمرة يكون الطاغى شيطانا ، ومرة يكون الطاغى كاهناً ، ومرة يكون ساحراً أو دجالاً ، ومرة يكون حاكماً .

ومادة « الطاغوت » تدل على أن الموصوف بها هو من تزيده الطاعة له طغيانا ، فعندما يجربك فى حاجة صغيرة ، فتطيعه فيها فيزداد بتلك الطاعة طغيانا عليك . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويزيد فى الأمر حتى يصير طاغية ، ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان العالى ، إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة ، كأى نظام ديكتاتورى قهرى ، إنه يبدأ بـ (جس نبض) فإن صبر الناس ، ازداد هذا النظام فى القسوة حتى يصير طاغوتا ، إذن فالطاغوت هو الذى تستزيده الطاعة طغيانا ، وتُطلق على الشيطان ؛ لأنه هو الأساس ، وعلى الذين يتكلمون باسم الدين للسلطة الزمنية (سواء كانوا كهاناً أو غيرهم) ، وتُطلق على الذين يسحرون ويدجلون ، لأنهم طغوا بما علموه ؛ إنهم يستعملون أشياء يتعبون بها الناس ، وقد جاءت الكلمة هنا بصيغة المبالغة لاشتمالها على كل هذه المعانى ، وإذا استعرضنا الكلمة فى القرآن نجد أن « الطاغوت » ترد مذكرة فى بعض الأحيان ، وقد وردت مؤنثة فى آية واحدة فى القرآن :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد أوضحت هذه الآية أنهم تركوا كل أنواع الطغيان وأصنافه ، أى إن الذين اجتنبوا الألوان المتعددة من الطغيان هم الذين يتجهون بالعبادة الخالصة لله ، ولهم البشرى . «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » وكلمة « استمسك » غير كلمة « مَسَكَ » . لأن « استمسك » تدل على أن فيه مجاهدة فى المسك ، والذى يتدين يحتاج إلى مجاهدة فى التدين ؛ لأن الشيطان لن يتركه ، فلا يكفى أن تمسك ، بل عليك أن تستمسك ، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالتدين ، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذًا وردًّا .

« فقد استمسك بالعروة » والعروة هى العلاّقة ، مثلما نقول : « عروة الدلو » ، التى تمسكها منه ، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبلْ الملفوف المتين ،

و« الوثقى » هى تأنيث (الأوثق) أى أمر موثوق به ، وقوله : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، قد يكون تشبيهاً بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتى بالماء ، وبالماء حياة البدن ، وبالدين حياة القيم.

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » كأنه ساعة جاء بكلمة « عروة » يأتى بالدلو فى بال الإنسان ، والدلو تأتى بالماء ، والماء به حياة البدن ، إذن فهذه تعطينا إيحاءات التصور واضحة ، « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، وما دامت « عروة وثقى » التى هى الدين والإيمان بالله ، وما دامت هى الدين وحبل الله فهذه وثقى ، وما دامت « وثقى » فلا انفصام لها ، وعلينا أن نعرف أن فيه انفصاماً . وفيه انقصام الأول بالفاء والثانى بالقاف .

الانفصام : يمنع الاتصال الداخلى ؛ مثلما تنكسر اليد لكنها تظل معلقة ، والانقصام : أن يذهب كل جزء بعيداً عن الآخر أى فيه بينونة ، والحق يقول : « لا انفصام لها والله سميع عليم » توحى بأن عملية الطاغوت ستكون دائماً وسوسة ، وهذه الوسوسة هى : الصوت الذى يُغرى بالكلام المعسول ، ولذلك أخذت كلمة «وسوسة الشيطان » من وسوسة الحُلىّ ، ووسوسة الذهب هى رنين الذهب ، أى وسوسة مغرية مثل وسوسة الشيطان ، والله عليم بكل أمر . ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

إن الله ولىّ الذين آمنوا ما دام « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك

بالعروة الوثقى » وكأن الحق يشرح ذلك بهذه الآية ، فمادام العبد سيتصل بالعروة الوثقى ويستمسك بها ، وهذه ليست لها انفصام فقد صارت ولايته لله ، وكلمة « ولىّ » إذا سمعتها هى من « وَلِىَ » أى : جاء الشىء بعد الشىء من غير فاصل ؛ هذا يليه هذا ، ومادام يليه من غير فاصل فهو الأقرب له ، ومادام هو الأقرب له إذن فهو أول من يفزع لينقذ ، فقد يسير معى إنسان فإذا التوت قدمى أناديه ؛ لأنه الأقرب منى ، وهو الذى سينجدنى .

فلا يوجد فاصل ، ومادام لا يوجد فاصل فهو أول من تناديه ، وأول من يفزع إليك بدون أن تصرخ له ؛ لأن من معك لا تقل له : خذ بيدى ، إنه من نفسه يأخذ بيدك بلا شعور ، إذن فكلمة « الله ولى الذين آمنوا » إذا نظرت إليها وجدتها تنسجم أيضاً مع « سميع وعليم » ، فلا يريدك أن تناديه ؛ لأن هناك من تصرخ عليه لينجدك ، وهو لن تصرخ عليه ؛ لأنه سميع وعليم ، « الله ولى الذين آمنوا » .

وكلمة « ولىّ » أيضا منها (مولى) ومنها (وال) ، « ولىّ الذين آمنوا » أى هو الذى يتولى شئونهم وأمورهم ، كما تقول : الوالى الذى تولَّى أمر الرعيّة ، وكلمة « مَوْلَى » مرة تُطلق على السيد ، ومرة تُطلق على خادمه ، ولذلك يقول الشاعر :

مولاك يا مولاى طالب حاجة

أى عبدك يا سيدى طالب حاجة ، فهى تستعمل فى معان مترابطة ؛ لأننا قلنا : « وَلِىّ » تعنى القريب ، فإذا كان العبد فى حاجة إلى شىء فمَن أول من ينصره ؟ سيده ، وإذا نادى السيد ، فمن أول مجيب له ؟ إنه خادمه ، إذن فيُطلق على السيد ويُطلق على العبد ، ويُطلق على الوالى ، « الله ولى الذين آمنوا » . وقوله الحق : « الذين آمنوا » يعنى جماعة فيها أفراد كثيرة ، كأنه يريد من الذين آمنوا أن يجعلوا إيمانهم شيئا واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حدة تكون ولاية لجميع المؤمنين ، وماداموا مؤمنين فلا تضارب فى الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عن إيمان واحد ، ومنهج واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وعن حركة واحدة .

وكيف يكون « الله ولى الذين آمنوا » ؟ إنه وليهم أى ناصرهم . ومحبهم ومجيبهم

ومعينهم ، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُب أكثر من هذا ؟ هل تركنا لنبحث عن الأدلة أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هي ولاية من ولايات الله . فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما آمنا وَالانَا بالمعونة ، وإن حاربنا خصومنا يكن معنا ، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزاء الأوفى فى الآخرة ، إذن فهو ولى فى كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان ولىّ . ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه . وفى الآخرة هو وليّنا بالمحبة والعطاء ويعطينا عطاءً غير محدود ، إذن فولايته لا تنتهى .

« الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » إنه سبحانه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ؛ لأن الظلمات عادة تنطمس فيها المرائى ، فلا يمكن أن ترى شيئاً إلا إذا كان هناك ضوء يبعث لك من المرئى أى أشعة تصل إليك ، فإن كانت هناك ظلمة فمعنى ذلك أنه لا تأتى من الأشياء أشعة فلا تراها ، وعندما يأتى النور فأنت تستبين الأشياء ، هذه فى الأمور المُحسَّة ؛ وكذلك فى مسائل القيم ، « يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

هل هم دخلوا النور يا ربنا ؟ لنا أن نفهم أن المقصود هنا هم المرتدون الذين وسوس لهم الشيطان فأدخلهم فى ظلمات الكفر بعد أن كانوا مؤمنين ، أو « يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ، أى يحولون بينهم وبين النور فيمنعونهم من الإيمان كما يقول واحد :

أما دريت أن أبى أخرجنى من ميراثه ؟ إن معنى ذلك أنه كان له الحق فى التوريث ، وأخرجه والده من الميراث . وهذا ينطبق على الذين تركوا الإيمان ، وفضلوا الظلمات . والقرآن يوضح أمر الخروج من الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان فى مواقع أخرى ، كقول سيدنا يوسف للشابين اللذين كانا معه فى السجن :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فهل كان سيدنا يوسف فى ملة القوم الكافرين ثم تركها ؟ لا ، إنه لم يدخل أساساً إلى ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله . إن هذه الملة كانت أمامه ، لكنه تركها ورفض الدخول فيها وتمسك بملة إبراهيم عليه السلام . وفى التعبير ما فيه من تأكيد حرية الاختيار . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

إن معنى الآية أن الله قد خلقنا جميعا ، وقدر لكل منا أجلاً ، فمنا من يموت صغيراً ، ومنا من يبلغ أرذل العمر ، فيعود إلى الضعف وتقل خلايا نشاطه فلا يعلم ما كان يعلمه . وليس معنى الآية أن الإنسان يوجد فى أرذل العمر ثم يرد إلى الطفولة .

وعندما يقول الحق : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » فالحق أورد هنا كلمة أولياء عن الطاغوت ، لأن الطاغوت كما قلنا: ألوان متعددة ، الشيطان طاغوت ، والدجال طاغوت ، والساحر طاغوت . وجاء الحق بالخبر مفرداً وهو الطاغوت لمبتدأ جمع وهو أولياء ، ووصف هؤلاء الأولياء للطاغوت بأنهم يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات .

لقد أفرد الله الطاغوت وأورد بالجمع الأفراد الذين ينقلهم الطاغوت إلى الظلمات . ولماذا لم يقل الله هنا : « طواغيت » بدلا من طاغوت ؟ إن الطاغوت كلمة تتم معاملتها هنا كما نقول : « فلان عدل » أو « الرجلان عدل » أو « الرجال عدل » . وعلى هذا القياس جاءت كلمة طاغوت ، فالشيطان والدجال والكاهن

والساحر والحاكم بغير أمر الله ؛ كلهم طاغوت ، لقد التزمت الآية بالإفراد والتذكير . فالطاغوت تُطلق على الواحد أو الاثنين أو الجماعة ، أي أن المُخرجين من النور إلى الظلمات هم أولياء الطاغوت ، أو من اتخذوا الطواغيت أولياء ، وهم إلى النار خالدون . والدخول للنار يكون للطواغيت ويكون لأتباع الطواغيت ، كما يقول الحق في كتابه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

إن أتباع الطواغيت ، والطواغيت في نار جهنم . وقانا الله وإياكم عذابها . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة واقعية في الكون من قوله : « الله ولي الذين آمنوا » ، فهو الولي ، وهو الناصر فيقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « ألم تر » ؛ فأنت تعلم أنها مكونة من همزة هي « أ » وحرف نفي وهو « لم » ، ومنفي هو « تر » والهمزة : تأتي هنا للإنكار ، والإنكار نفي بتقريع ، ولكنها لم تدخل على فعل مثبت حتى يقال : إنها أنكرت الفعل بعدها ، مثلما تقول

للولد : أتضرب أباك ! هنا الهمزة جاءت لا لتستفهم وإنما أنت تنكر هذه الفعلة ، لأن الفعل بعدها مثبت وهو « تضرب » ، وجاءت الهمزة قبله فتسمى « همزة إنكار » للتقريع . إذن فالإنكار : نفى بتقريع إذا دخلت على فعل منفى .

ومادام الإنكار نفيا والفعل بعدها منفيٌّ فكأنك نفيت النفى ، إذن فقد أثبته ، كأنه سبحانه عندما يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : « ألم تر » فالمقصود « أنت رأيت » . ولماذا لم يقل له : أرأيت ؟ لقد جاء بها بأسلوب النفى كى تكون أوقع ، فقد يكون مجىء الإثبات تلقينًا للمسئول ، فعندما يقول لك صديق : أنت لم تسأل عنى وأنت تهملنى . فأنت قد ترد عليه قائلا : ألم أساعدك وأنت ضعيف ؟ ألم آخذ بيدك وأنت مريض ؟

لقد سبق أن قدمت خدماتك لهذا الصديق ، ولكنك تريد أن تنكر النفى الذى يقوله هو ، وهكذا نعلم أن نفى النفى إثبات ، ولذلك فنحن نأخذ من قوله تعالى من هذه العبارة « ألم تر » على معنى : أنت رأيت ، والرؤية تكون بالعين . فهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو المخاطب الأول بالقرآن الكريم من ربه ـ هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة أيام إبراهيم ؟ طبعا لا ، فكأن « ألم تر » هنا تأتى بمعنى : ألم تعلم .

ولماذا جاء بـ « ألم تر » هنا ؟ لقد جاء بها لنعلم أن الله حين يقول : « ألم تعلم » فكأنك ترى ما يخبرك به ، وعليك أن تأخذه على أنه مصدق كأنك رأيته بعينك . فالعين هى حاسة من حواسك ، والحاسة قد تخدع ، ولكن ربك لا يخدع ، إذن فـ « ألم تر » تعنى : « ألم تعلم علم يقين » ، وكأنك قد رأيت ما يخبرك به الله ، ولذلك يقول تعالى للرسول :



(سورة الفيل)

والرسول ولد عام الفيل ، فلم ير هذه الحادثة ، وكأن الله يخبره بها ويقول له : ألم تعلم ، وكأنه يقول له : اعلم علماً يقينيا كأنك تراه ؛ لأن ربك أوثق من عينيك ،

وعندما يقال : « ألم تر » فالمراد بها « ألم تر كذا » ، لكن الحق قال : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث ، ومثال ذلك ما نقوله أحيانا : ألم تر إلى زيد يفعل كذا .

فكأن ما فعله زيد أمر عجيب ، وكأنه ينبه هنا إلى الالتفات إلى نهاية الأمر ، لأن « إلى » تفيد الوصول إلى غاية ، فكأنها مسألة بلغت الغاية فى العجب ، فلا تأخذها كأنك رأيتها فقط ، ولكن انظر إلى نهايتها فيما حدث .

والحق يقول هنا : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » و« إلى » جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة ، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة ، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذى حاج إبراهيم فى ربه ، لأنه لا يعنينا التشخيص سواءً كان النمروذ أو غيره .

فإذا ذهب بعض المفسرون إلى القول : إنه ملك واسمه النمروذ . فإننا نقول لهم : شكراً لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذى يهمنا هو أنه واحد خرج على رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله فى هذه المسألة ، والتشخيص هنا ليس ضرورياً ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه فى أى زمان أو مكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأى إنسان فى أى مكان قد يحاجج أى مؤمن . وليس كذلك الأمر بالنسبة لأى تشخيص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا قصة أهل الكهف ، ويتساءلون : أين ومتى ، وكم عددهم ، ومن هم ؟

ونقول : لو جاءت واحدة من هؤلاء لفسدت القصة ؛ لأنه لو حددنا زمانها سيأتى واحد يقول لك : مثل ذلك الزمان الذى حدثت فيه القصة كان يسمح بها . ولو حددنا المكان سيقول آخر : إن المكان كان يسمح بهذه المسألة . ولو حددنا الأشخاص بأسمائهم فلان وفلان ، فسيقول ثالث : إن مثل هذه الشخصيات يمكن أن يصدر منها مثل هذا السلوك وأنى لنا بقوة إيمان هؤلاء ؟

والحق لم يحدد الزمان والمكان والأشخاص وجاء بها مبهمة ليدل على أن أى فتية فى

أى زمان وفى أى مكان يقولون ما يقولون ، ولو شخصها فى واحد لفسد المراد . لننظر إلى دقة الحق حين ضرب مثلا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط حين قال جل وعلا :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

ولم يحدد لنا اسم امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر الأمر المهم فقط ؛ وهو أن كلا منهما زوجة لرسول كريم ، ولكن كلا منهما أصرت على الكفر فدخلتا النار . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين أراد التخصيص بحادث لن يتكرر فى أى زمان أو مكان جاء بذكر السيدة مريم بالتشخيص والتحديد الواضح حين قال :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

تحديد الحق لمريم بالاسم والحادث لماذا ؟ لأن الواقعة غير قابلة للتكرار من أية امرأة أخرى . التشخيص هنا واجب ؛ لأنه لن تلد امرأة من غير زوج إلا هذه ، إنما إذا كانت المسألة ستتكرر فى أى زمان أو مكان فهو سبحانه يأتى بوصفها العام ، ومثال ذلك قول الحق : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم » فلم يقل لنا : من هو ؟ و« حاجّ » أصلها « حاجج » ، مثل « قاتل » و« شارك » . وعندما يكون هناك حرفان مثلان ، فنحن نسكن الأول وندغم الثانى فيه وذلك للتخفيف ، فتصير (حاج) ، و« حاج » من مادة « فاعل » التى تأتى للمشاركة ، وحتى نفهم معنى « المشاركة » . إليكم هذا المثال :

نحن نقول : قاتل زيد عَمراً ، أو نقول : قاتل عَمرو زيداً، ومعنى ذلك أن كُلًّا منهما قد تقاتل ، وكلاهما فاعل ومفعول فى الوقت نفسه ، لكننا غلبنا جانب الفاعل فى واحد ، وجانب المفعول فى الثانى . برغم أن كلا منهما فاعل ومفعول معا .

ومثال آخر ، حين نقول : شارك زيد عمراً ، وشارك عمرو زيداً ، إذن فالمفاعلة جاءت من الاثنين ، هذا فاعل وهذا مفعول ، لكننا عادة نُغلب الفاعلية فيمن بدأ ، والمفعولية فى الثانى ، وإن كان الثانى فاعلا أيضا . ولذلك يقول الشاعر عندما يريد أن يشرح حال إنسان يمشى فى مكان فيه حيات كثيرة ومتحرزاً من أن حية تلدغه فقال :

قد سالم الحيات منه القدم
الأفعوان والشجاع القشعما

إن الشاعر هنا يصف لنا إنساناً سار فى مكان ملىء بالحيات ، وعادة ما يخاف الإنسان أن تلدغه حية ، لكن هذا الإنسان الموصوف فى هذا البيت نجد أن الحيات قد سالمت قدمه ، أى لم تلدغه لأنه لم يَهِجْها ، والثعابين عادة لا تلدغ إلا من يبدأها بالإهاجة ، نجد هنا أن الفاعل هو الحيات ؛ لأنها سالمت قدمه . ويصح أيضا أن نقول : إن القدم هى التى سالمت الحيات .

ونحن نعرف من قواعد اللغة ما درسناه قديما ما يسمى بالبدل ، والبدل يأخذ حكم المبدل منه ، فإن كان المبدل منه مرفوعا جاء البدل مرفوعا ، وإن كان المبدل منه منصوبا جاء البدل منصوبا ، وإن كان المبدل منه مجروراً كان البدل كذلك . هنا جاءت « الحيات » فى هذا البيت من الشعر مرفوعة ولكن الأفعوان جاءت فى البيت منصوبة مع أنها بدل من مرفوع هو « الحيات » لأنه لاحظ ما فيها أيضاً من المفعولية فأتى بها منصوبة . كما أن بالإمكان أن تُقرأ « الحيات » بالنصب و« القدم » بالرفع لأن كلا منهما فاعل ومفعول من حيث المسالمة .

وكذلك فى قول الحق سبحانه : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » نحن ١
نلاحظ أن كلمة « إبراهيم » تأتى فى الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، أى يغلب عليها المفعولية . فمن إذنِ الذى حاجّ إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجّة ، وهكذا تدلنا الآية الكريمة ، وتصف الآية ذلك الرجل « أن آتاه الله الملك » أى أن الرجل قد وهبه الله الملك وقد حاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه ، فكأن هذا الرجل هو الذى بدأ الحِجاج قائلا لإبراهيم : من ربك ؟

فقال إبراهيم عليه السلام : « ربى الذى يحيى ويميت » وهذه هى براعة القرآن فى أن يترك الشىء ثقة بأن السامع يرد كل شىء إلى أصله ، فقوله الحق : « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » فكأن الذى حاج إبراهيم سأله : من ربك ؟ فقال إبراهيم : « ربى الذى يحيى ويميت » .

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد جاءت بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « الله ولى الذين آمنوا » ، والولاية هى النصر والمحبة والمعونة ، فيريد سبحانه أن يبين لنا كيف أعان الله إبراهيم على من حاجه ، إلا أن الذى حاج إبراهيم دخل فى متاهات السفسطة بعد أن سمع قول إبراهيم : « ربى الذى يحيى ويميت » ، وقد جاء الحق بـ « يحيى ويميت » ؛ لأن تلك القضية هى التى لم يدَّعِ أحد أنه فعلها ، ولم يدَّع أحد أنه شريك فيها ، حتى الكافرون إذا سألتهم : من الذى خلق ؟ يقولون الله .

إذن فهذه قضية ثابتة . إلا أن الخصم الذى حاجّ إبراهيم أراد أن ينقل المحاجة نقلة سفسطائية . والسفسطة كما نعلم هى الكلام الذى يطيل الجدل بلا نهاية .

وقالَ الرجل الذى يحاج إبراهيم عليه السلام : إذا كان ربك الذى يحيى ويميت فأنا أحيى وأميت .

فسأله إبراهيم عليه السلام : كيف تحيى أنت وتميت ؟

قال الرجل : أنا أقدر أن أقتل ما عندى من مساجين وأقدر ألا أقتلهم ، فالذى لم أقتله كأننى أحييته ، والذى قتلته فقد أمته .

ولم يقل سيدنا إبراهيم لنتفق أولا ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ذلك أن إبراهيم خليل الرحمن لم يشأ أن يطيل هذه المجادلة ، فجاء له بأمر يُلجمه من البداية وينتهى الجدل ، فقال له : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذى كفر » . وهكذا أنهى سيدنا إبراهيم هذا الجدل . كان من الممكن أن يدخل معه سيدنا إبراهيم فى جدل ، ويقول له : ما هى الحياة ؟

ونحن نعرف أن الحياة هى إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة، أما الموت فهو إخراج الروح من الجسد ، فالذى يقتل إنساناً ؛ إنما يخرج روحه من جسده ، والقتل يختلف عن الموت ؛ لأن الموت خروج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان فى بدنه كالانتحار .

وقد يكون الإنسان جالساً مكانه وينتهى عمره فيموت ، ولا أحد قادر قبل ذلك أن يقول له : مت فيموت ، هذا هو الموت ، لكن إزهاق الروح بجرح جسيم أو نقض بنية فهذا هو القتل وليس الموت ، ولذلك يجعل الله القتل مقابلاً للموت ، فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الفرق بين الموت والقتل ، وجعل كلا منهما مقابلاً للآخر ، فعندما أشيع أن رسول الله قد قتل ، هَمَّ بعض المسلمين بالارتداد إلى الكفر ، فأنكر الله عليهم ذلك قائلاً : إن محمداً رسول من عند الله قد مات من قبله المرسلون أفإن مات أو قتل رجعتم عن الإيمان للكفر ، ومَنْ يفعل ذلك فإنما يضر نفسه ، والثواب عند الله للثابتين على منهج الله الشاكرين لنعمه ، أوضح لنا الحق أن موت أى إنسان لا يمكن أن يحدث إلا بإذن الله ، وقد كتب الله ذلك فى كتاب مشتمل على الآجال .

ويريد الله أن يُنبهنا ويُلفتنا إلى حقيقة مهمة وهى أن الرسل فى جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف أنّ النّبىّ يظفر بالغلبة وإنما يكون الهدف بالنسبة للرسول أو النبى أن يصل إلى الحقيقة ، ولذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع

الرجل الذى يحاجّه فى الله عند نقطة الإحياء والإماتة ؛ لأنه رأى فى مناقشة الرجل لونا من السفسطة .

وعلينا ونحن نتدبر آيات القرآن بالخواطر الإيمانية أن نفهم الفرق بين الإماتة والقتل . الصحيح أن الإماتة والقتل يشتركان فى أمر واحد وهو خروج الروح من الجسد . والإماتة تختلف عن القتل بأنه لا يقدر عليها إلا واهب الحياة الذى وضع مقومات خاصة فى البنية الإنسانية حتى تسكنها الروح ، وهو القادر على أن يسلب الروح بأمر غير محس .

أما القتل فهو أن تجرح إنساناً فيموت ، أو تنقض بنيته ، تكسر له رأسه مثلاً ، أما « الإماتة » فهى أن تنقبض حياته بمجرد الأمر دون أن تقربه ، هل أحد من البشر يقدر على هذه ؟ لا . إذن فالذى حاج إبراهيم لم يحى الذى قال : إنه سيتركه بدون عقوبة ، إنه لم يقتله ، لكنه أبقى الحياة التى كانت فيه ، هذا إذا أردنا أن ندخل فى جدل .

والله قد جعل القتل مقابلاً للموت ، صحيح أنهما ينتهيان بأن لا روح ، لكنْ هناك فرق بين أن تؤخذ الروح بدون هذه الوسائل . وأن تترك الروحُ البدنَ لأن بنيته قد تهدمت . وإياك أن تظن أن الروح لا تخضع لقوانين معينة ، إن الروح لا تحل إلا فى مادة خاصة ، فإذا انتهت المقومات الخاصة فى المادية فالروح لا تسكنها ، فلا تقل : إنه عندما ضربه على رأسه أماته ! لا ، هو لم يخرج الروح لأن الروح بمجرد ما انتهت البنية تختفى .

والمثال الذى يوضح ذلك : لنفترض أن أمامنا نورًا ، إذا كسرت الزجاجة يذهب النور . هل الزجاجة هى النور ؟ لا ، لكن الكهرباء لا تظهر إلا فى هذه الزجاجة ، كذلك الروح لا توجد إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، إذن فالقاتل لا يُخرج الروح ولكنه يهدم البنية بأمر مُحسّ ؛ فالأمر الغيبى وهو الروح لا يسكن فى بنية مهدومة .

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك » ، انظر إلى الطغيان ،

أتجعل إيتاء المُلْك وهو نعمة وسيلة إلى التمرد على من أنعم عليك بهذا ؟ أتجعل شكر النعمة بأنك تخالف المنعم ؟ من الذى أبطره ؟ أأبطره أن آتاه الله الملك ؟ وكيف يعين الله واحداً ليس مؤمنا به ؟ والمُلْك ـ بمعنى الأمر والنهى ـ إنما يكون للمبلغ عن الله ، إنما الملك الآخر مُلْكُ السلطان بأن يُحَكِّمَ إنسانا على جماعة ، فمن الجائز أن يكون مؤمنا ، وأن يكون كافراً .

وقوله « أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » هو جواب على من قال : « من ربك » فجاءته إجابة إبراهيم عليه السلام « ربى الذى يُحيى ويميت فقال أنا أحيى وأميت » وعرفنا ما فى هذا الأمر من سفسطة ، فلم يقل له إبراهيم : أأنت تُحيى وتميت ، بل ينقله إلى أمر آخر ، كأنه قد قال له : اترك الأمر الغيبى وهو الروح ، وتعال للأمر المشهود « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر » .

ولأن الله ولى الذين آمنوا فهو سبحانه لم يلهم المحاج أن يَرُدّ ؛ كان يستطيع أن يقول له : اجعل من يأتى بها من المشرق يأتِ بها من المغرب ، لكنه لم يقلها ! مما يدل على أنه غبى ! أو يكون ذكيا فيقول : إن الرب الذى معه بهذا الشكل قد يفعلها ، فخاف . إذن فـ « الله ولىّ الذين آمنوا » حقا . وهو سبحانه « يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

وما معنى كلمة « بُهت » ؟ إن البهت يأخذ ثلاث صور : الصورة الأولى : الدهشة ؛ نقله فيما يمكن أن تحدث فيه مماحكة إلى مالا تحدث فيه مماحكة وجدال ، أراد أن يجد أمراً يرد به فلم يقدر ، مثلما قال : أنا أحيى وأميت ، لقد دهش ، وأول ما فاجأه هو الدهش ، ثم كان التحيّر ، أراد أن يجد أى مخرج من هذه الورطة فلم يجد ، إذن فقد هُزم . فهذه هى نهاية البَهت . فـ « بُهت » تعنى أنه دهش أولا ، فتحير فى أن يرد ثانيا ، فكان نتيجة ذلك أنه هُزم ثالثا ، وهذا أمر ليس بعجيب ؛ لأنه مادام كافراً فليس له ولى ، أو وليه من لا يقدر « أولياؤهم الطاغوت » ، أما إبراهيم خليل الرحمن فوليه الله .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله لا يهدى القوم الظالمين » لا يهديهم إلى برهان ،

ولا إلى دليل ، ولا إلى حجة ، لأن وليهم الشيطان ، « والله لا يهدى القوم الظالمين » والآية التى تأتى من بعد ذلك كلها ستتدخل فى الحياة والموت ، ومن المهم أن الآية تدخل فى الحياة والموت كى لا نفهم أن إبراهيم إنما ترك المحاجة مع ذلك الذى حاجّه فى أمر الموت والحياة هربا من الكلام فيها ، لذلك يريد الله أن يستوفى تلك القضية استيفاء فى قصص متعددة ، ويبسط الحق القضية التى عدل عنها إبراهيم وهى الموت والحياة فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

وعندما ننظر إلى بداية الآية نجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد « أو » يكون معطوفاً على ما قبلها ، فكأن الحق يريد أن يقول لنا : أو (ألم تر) إلى مثل الذى مر على قرية .

وعندما تسمع كلمة « قرية » فإنها تفيد تجمع جماعة من الناس يسكنون فى مكان

محدود ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة . ونلحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية أو باسم الذى مر عليها .

قال البعض : إنه هو أرمياء بن حلقيا أو هو الخضر ، أو هو عزير ، وقد قلنا من قبل : إنه إذا أبهم الحق فمعناه : لا تشخص الأمر ، فيمكن لأى أحد أن يحدث معه هذا .

« أو كالذى مر على قرية » . وقالوا : إنها بيت المقدس ، « وهى خاوية على عروشها » وحتى نفهم معنى خاوية على عروشها ، لنا أن نعرف أنى عندما أقول : « أنا خويان » أى « أنا بطنى خاوية » : « جوعان » فـ « خاوية » المقصود بها أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والحق يقوله عن تلك القرية : إنها خاوية على عروشها ، و« العرش » يُطلق على البيت من الخيام ، ويطلق كما نعرف على السقف ، فإذا قال : « خاوية على عروشها » أى أنّ العرش قد سقط أولا ، ثم سقطت الجدران عليه ، مثلما نقول فى لغتنا العامية : « جاب عاليها على واطيها » .

وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتا للنظر ، قال : « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية . والحق حين يذكر القرية فى القرآن فهو يقصد فى بعض الأحيان الحديث عن أهلها مثل قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن أبناء يعقوب عليه السلام حين عادوا من مصر وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم : أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر واسأل بنفسك زملاءنا الذين كانوا معنا فى القافلة ، وسيقولون لك : إننا قد تركنا أخانا بمصر . لكن سؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها .

« أنَّى يُحيى هذه الله بعد موتها » وساعة تسمع « أنَّى » فهى تأتى مرة بمعنى « كيف » ، ومرة تأتى بمعنى : « من أين » ، والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالى : « كيف يُحيى الله هذه بعد موتها » ؟ وقوله هذا يدل على أنه مؤمن ، فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت ، وهذه ستأتى فى قصة سيدنا إبراهيم :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

هو لا يشك فى أن الله يُحيى الموتى ، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية ؛ لأن الذى يريد أن يعرف كيفية الشىء ، لا بد أنه متعجب من وجود هذا الشىء ، فيتساءل : كيف تم عمل هذا الشىء ؟ مثلما نرى الأهرام ، ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟ إذن فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث ، فقول الحق : « أنَّى يُحيى هذه الله » . . يعنى : كيف يُحيى الله هذه القرية بعد موتها ، فكأن القائل لا يشك فى أن الله يُحيى ، ولكنه يريد الكيفية ، والكيفية ليست مناط إيمان ، فالله لم ينهنا عن التعرف على الكيفية ؛ فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدث .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فمُصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها ، فأنت تتيقن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دقة الصنعة ، وتقول له : بالله كيف عملت هذه ؟ كأنك قد عشقت الصنعة ! فتشوقت إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بصنعة الحق تبارك وتعالى ؟ إنك تندهش وتتعجب لتعيش فى ظل السر السائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تنعم بهذه النعم .

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ أنت ترى مثلا لوحة رسمها رسام ، فتقول له : بالله كيف مزجت هذه الألوان ؟ أنت لا تشك فى أنه قد مزج

الألوان . بل تريد أن تسعد نفسك بأن تعرف كيف رسمها ، إذن فقوله وقول إبراهيم بالسؤال فى الإحياء والإماتة فيها يأتى ليس معناه أنه غير مؤمن بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

ونعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التى تعمر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها لها حياة ولها موت . وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة معاشة فى ذات السائل ؛ لذلك يأتى القرآن بالقول « فأماته الله مائة عام » .

إن صاحب السؤال قد أراد أن يعرف الكيفية ، وطلبه هو إيمان دليل ، ليصبح فيما بعد إيمانا بواقع مشاهد « فأماته الله مائة عام »لقد جعل الله الأمر والتجربة فى السائل ذاته وهذا إخبار الله . لقد أماته مائة عام ، والعام هو الحول ، وقد سموا « الحَوْل » عاما ؛ لأن الشمس تعوم فى الفلك كله فى هذه المدة ، والعوم سَبْحٌ ، والحق يقول :

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

ولذلك نسميه عاماً . « فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » ، فكأن الله قال له كلاماً كما كلم موسى ، أو سمع صوتاً أو ملكاً أو أنّ أحدًا من الموجودين رأى التجربة . فالمهم أن هناك سؤالاً وجوابًا . ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار فى هذا الشأن ، السؤال هو : كم لبثت ؟ فأجاب الرجل : لبثت يوماً أو بعض يوم .

وإجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة :« لبثت يوماً أو بعض يوم » أو يكون قد قال ذلك ؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن . فهل هو صادق فى قوله أو كاذب ؟ إنه صادق ، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو قد

نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغيراً .

فماذا كان جواب الحق ؟ قال الحق : « بل لبثت مائة عام » . إننا هنا أمام طرفين ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً ، طرف يقول : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ورب يقول : « بل لبثت مائة عام » . ونريد أن نحل هذا اللغز . إن الحق سبحانه صادق ومُنزّه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ونريد دليلا على هذا ، ودليلا على ذاك . نريد دليلا على صدق العبد فى قوله : « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل اطمئنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونقول : إن فى القصة ما يؤيد « لبثت يوما أو بعض يوم » ، وما يؤيد « بل لبثت مائة عام » ، فقد كان مع الرجل حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين . فقال الحق سبحانه وتعالى : « لبثت مائة عام » ، وأراد أن يدلل على الصدق فى القضيتين معاً قال : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه »، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل ، بقيت قضية « مائة عام » .

فقال الحق : « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » وهذا القول يدل على أن هنا شيئا عجيبا ، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم ، لكن أن يَرِمّ جسمه ، ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صدق « يوماً أو بعض يوم » .

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ، وكيف بُسط

الزمن فى مسألة الحمار . إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حق شىء ، ويبسط الزمن فى حق شىء آخر ، والشيئان متعاصران معا . وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد قال الحق سبحانه : « ولنجعلك آية للناس » ، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذى مَرَّ على قرية آية لهم ؟ كان لابد أن يوجد أناس فى القصة ، لكن القرية خاوية على عروشها ، وليس فيها إنسان أو بنيان ، أهم الذين كانوا فى القرية أم سواهم ؟ قال بعض المفسرين هذا ، وقال البعض الآخر الرأى المضاد .

وأصدق شىء يمكن أن يتصل بصدق الله فى قوله : « ولنجعلك آية للناس » هو قبض الله للزمن فى حق شىء ، وبسطه فى حق شىء آخر ، وعزير كما قال جمهرة العلماء هو الذى مر على قرية ، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، ويوشع ، وقد أراه الله العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحما ، أى أراه عملية الإحياء مشهدياً ، وفى هذا إجابة للسؤال : « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » ؟

والحق يقول : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » و« ننشزها » أى نرفعها ، ورأى « عزير » كل عظمة فى حماره ، وهى تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد عزير إجابة فى نفسه ، ووجد إجابة فى الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قريته التى خرج منها ، وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان فى تلك القرية مولاة لهم ، أى أمة فى أسرته ، وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال : أنا العزير . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ؟

قال : أنا العزير . قالت : إن للعزير علامة ، هذه العلامة أنه مجاب الدعوة ، ولم تنس نفسها . قالت : فإن كنت العزير فادع الله أن يرد عليَّ بصرى وأن يخرجنى من قعودى هذا . فدعا عزير الله فبرئت ، فلما برئت ؛ نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلا قد تجاوز مائة سنة ، وكان العزير لا يزال شابا فى سن خمسين سنة .

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزاً : وما ابنٌ رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته الله وهو فى الخمسين ثم أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه . قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه « شامة » . فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

وتثبت أهل القرية من صدق عزير : بشىء آخر هو أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة ، إلا أن رجلا قال : إن أباه قد دفن فى مكان ما نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة ، قال العزير : وأنا أحفظها . وتلا العزير التوراة كما وُجدت فى النسخة ، فصدق القوم أنه العزير ، وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسين . ولذلك يذيل الحق الآية بالقول : « قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ نعم كان يعلم علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أين .

إذن فـ « أعلم أن الله على كل شىء قدير » هى تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله على الإحياء والإماتة ، فصار يعلم حق اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين .

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة . ومعنى تعليق الحياة هو يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوى ، أى تنكمش فى الشتاء

فى ذاتها ولا تُبدى حركة ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البيات الشتوى لا تحتسب من عمر الثعابين ، ولذلك يقال : إن ذلك هو عملية تعليق الحياة . وهذه العملية التى قد نفسر بها مسألة أهل الكهف . فأهل الكهف أيضا مرت عليهم العملية نفسها :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إنهم لم يروا شيئاً قد تغير فيهم . وبعد ذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن الله حدد الزمن الذى لبثوه ، بينما هم قالوا : إن الزمن هو يوم أو بعض يوم . ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التى كانت قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم . ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءت هنا فى قصة العزير بعد آية الكرسى التى تصور العقيدة الإيمانية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وتصور قضية الحياة وقضية الموت ونعلم أن إبراهيم حين حاجَّه الرجل وقال له :

« أنا أحيي وأُميت » نقل إبراهيم الحُجّة إلى الليل والنهار ، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار ، فقال للرجل : « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر » .

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل . ونقل الأمر إلى الشمس ، لكن أراد الله أن يأتي بقصة هذا الإنسان الذي مر على قرية وهي خاوية ، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحق لنا أن قضية الحياة وقضية الموت بيده وحده . وليخرج الحق سبحانه أمر الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية . وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حينما تعرضنا لقول الذي حاج إبراهيم في ربه بإثنين من المسجونين وقال : أنا أستطيع أن أقتل واحدا ، وأن أترك الثاني بلا قتل .

هذه هي السفسطة : إنه لم يحي ، بل أبقى حياة . وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة ؛ لأن الإماتة هي أن تخرج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان في البدن . أما إذا فعل إنسان أي شيء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته بل يقال لقد قتله . والموت كما عرفنا غير القتل .

وتأتي بعد ذلك قصة لإبراهيم أيضا بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس ، فبهت الرجل الذي كفر ، أما إبراهيم عليه السلام فهو مؤمن بقدرة الله ، لكنه يريد أن يعرف الكيفية . إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : « رب أرني كيف تحيي الموت قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر . إذن ، فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى بدليل منطوق الآية حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يسأل : كيف تُحيى الموتى ؟ أى أنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء . فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى الإحياء ، وإنما كان شكه ـ عليه السلام ـ فى أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه فى أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى ؟ ولنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله مُنزه عن أى تشبيه .

إن الواحد منا يقول للمهندس : كيف بنيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدَث وهو البيت الذى تم بناؤه . فهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان ؟ لا .

ولنعلم أولا ما معنى : عقيدة ؟. إن العقيدة هى : أمر معقود ، وإذا كان هذا فكيف يقول : « ليطمئن قلبى » ؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال ، وقبل أن يجاب إليه ، لم يكن قلبه مطمئناً ؟ لا ، لقد كان إبراهيم مؤمناً ، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً ؛ لأنه أدار بفكره الكيفية التى تكون عليها عملية الإحياء ، لكنه لا يعرف على أية صورة تكون .